القصة القرآنية عند شيخ الإسلام ابن تيمية
-قصة يوسف أنموذجا (عرض وتحليل)

أ. عبد العزيز ثابت

جامعة عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

ملخص المقال

يختص هذا المقال أو يندرج ضمن الدراسات التفسيرية للنص القرآني، والذي تتعلق ببعض جزئيات التفسير ومناهج المفسرين وبشكل خاص في محور هو أوسع محاور القرآن الكريم وموضوع من أكبر مواضيعه الكبرى ألا وهو القصص القرآني: فيرمي المقال بيان منهج علم من أعلام التفسير في معالجة القصة القرآنية وهو شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن وقع الاختيار على قصة من أروع قصص القرآن لاشتمالها على دروس وآداب في شتى الأبواب عقديا وأخلاقيا واقتصاديا وغيرها ممّا شملته وحوته من مواعظ وعبر، فجاء هذا المقال ليكشف طريقة الشيخ في تحليل هذه القصة وتفسيرها، وبيان موقفه من القصص القرآني وما يتعلق به في كيفية تعامله مع الروايات والأخبار الإسرائيلية، وتنويهه وتذكيره بأغراض القصة ومقاصدها وأهدافها.

مقدمة:

إنّ الناظر في القصة القرآنية يتضح له بجلاء المنزلة الرفيعة التي تبوأتها والمكانة العالية التي حظيت بها إذا ما قورنت بنظائرها من موضوعات القرآن ،فقد حوت محورا رئيسا من محاوره الكبرى وشغلت مساحة واسعة من كلياته العظمى، وما كان لها هذا التبوء والمنزلة إلاّ لما انضوت عليه من خصائص فنية رائعة وما انطوت عليه من أهداف وأغراض نبيلة ومقاصد سامية، هذه الأغراض والمقاصد والأهداف قد جذبت أنظار صفوة من العلماء، واسترعت انتباه ثلة من الفضلاء، فراحوا يرتضون رياضها بغية الوقوف على جمالها، وأطلقوا العنان ليراع أقلامهم علّهم يستخلصون دروسها ومكامن العظة والموعظة فيها، فكانت موردا للأدباء، ومنبعا للمفسرين والأصوليين والفقهاء ،وإن كان المفسرون لهم قصب السبق في ذلك، والحيز الكبير في ذلك الجانب لاشتغالهم الدائم بكتاب الله تعالى، فكان لزاما عليهم أن يقفوا عند قصصه وينظروا ما فيه، ويستخلصوا منه ما فتح الله به عليهم، ويستنبطوا منه ما جادت به قرائحهم وصفوة أذهانهم، لكنّهم لم يكونوا إزّاء قصصه على نسق واحد، أو جانب سواء، ففيهم المعتني بروايات القصة وما ورد فيها من أخبار إسرائيلية، ومنهم المضرب عنها، ومنهم الناقد البصير للمروي في شأنها، ومنهم المورد لها كالشيء المسلم به لا يصحبها بنقد ولا تعقيب؛ وفيهم من يشير إلى أغراضها وما حوته من مواطن العبرة والموعظة، ومنهم الغافل عن ذلك كله، وبين هذا وذاك أحببت أن أتناول في هذا المقال علم من أعلام المفسرين وفارس من فرسانهم أستبين ملامح منهجه في كيفية تعامله مع القصة القرآنية وطريقة معالجته لها، هو مفسر تبوأ منزلة رفيعة في علوم الكتاب خاصة؛ وفي الشريعة عامة، وأذعن لإمامته في التفسير؛ وشهد بكماله فيه الموافق والمخالف، بيد أنّه لم يترك لنا مصنفا

خاصا في تفسير كتاب الله، وإنّما كانت أقواله التفسيرية منثورة في مضامين كتبه، ومكنونة في نفائس درر ما وصل إلينا من مصنفاته ألا وهو ـ الإمام الحافظ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ، كما وقع اختياري على قصة يوسف والتي اشتملت كما يقول الدكتور فضل حسن عباس على الكثير من العبر ودروس الحياة في كل مجالاتها، ففيها دروس التربية والأخلاق والاجتماع والتاريخ والسياسة ومجالات أخرى ...[1] ولأهميتها بين باقي قصص القرآن أفردها الكثير من العلماء بمصنفات خاصة[2] وللكشف عن منهج ابن تيمية في تناوله لهذه القصة كانت خطة هذا المقال في المطالب التالية :

المطلب الأول : تعريف القصة القرآنية

المطلب الثاني : ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية

المطلب الثالث : مكانة ابن تيمية في التفسير

المطلب الرابع : عرض القصة وتحليلها

المطلب الأول : تعريف القصة القرآنية

الفرع الأول: القصة في اللغة

إنّ البحث في المعنى الاصطلاحي للقصة يقضي بلزوم الوقوف على المعنى اللغوي للفظة «القصة»، فالكلمة مشتقة من مادة «قص» وإذا أمعنا النظر في المعاجم اللغوية وجدناها تمدنا بمعان كثيرة للفظة «القص» تدور بين تتبع الأثر وروايته كالخبر ففي صحاح الجوهري قصّ أثره تتبعه قال: الله تبارك وتعالى:

---

[1] انظر: قصص القرآن الكريم، ط 3، الأردن، دار النفائس، 1430 . 2010 م، ص 379.

[2] من ذلك: مختصر الزهر الأنيق في قصة يوسف الصديق، لعبد السلام بن غالب المسراتي القيرواني المالكي المتوفى سنة 646هـ، وسراج الدين أبو حفص عمر بن إبراهيم الأنصاري المرسي المتوفى سنة 751 هـ .

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [1]. وكذلك اقتصّ وتقصص، واقتصت الحديث رويته على وجهه والاسم القص بالفتح وضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه، والقَصَص بالكسر جمع قصة»[2] وفي مقاييس اللغة:« القاف والصاد أصل صحيح يدل على تتبع الشيء من ذلك قولهم اقتصصت الأثر إذا تتبعته، ومن الباب القصة والقصص كل ذلك يتتبع فيذكر »[3] وبهذا ندرك أنّ المعنى اللغوي للفظة القصة يتمحور حول تتبع الشيء وتقصيه

الفرع الثاني : القصة اصطلاحا

القصة في المدلول الشامل للكلمة لون من ألوان الأدب القصصي، الذي يروي الأخبار على أنواعها ويعرض الأحداث، ويسوق الحكايات والنوادر وينسج الأساطير والخرافات طلبا للمتعة والفائدة. [4]

فالقصة فن من الفنون الأدبية يقوم على سرد حادثة أو مجموعة من الحوادث مستمدة من الواقع أو الخيال، أو منهما معا وتبنى على قواعد معينة من الفن الكتابي والقواعد الجمالية. [5]

أمّا القصة القرآنية فقد وضع لها الكثير من المفسرين والعلماء حدودا وتعاريف نذكر منها أجمعها وأدقها فممّن عرّفها الشيخ الطاهر بن عاشور حيث قال :« القصة الخبر عن حادثة غائبة عن المخبر بها، فليس ما في

---

[1] سورة الكهف: الآية 64.

[2] الصحاح: إسماعيل بن حماد الجوهري، ط 4، تحقيق أحمد عبد الغفار عطا، بيروت، دار العلم للملايين، 1984م، مادة قصص، ج 3، ص 15.

[3] مقاييس اللغة : أبو الحسين أحمد بن فارس، د ط، تحقيق عبد السلام هارون، دت، دار الفكر، ص 11.

[4] انظر:المعجم المفصل في اللغة والأدب، إميل يعقوب، د ط، بيروت، دار العلم للملايين، ج 2، ص 979.

[5] انظر: قاموس المصطلحات اللغوية، إ ميل يعقوب ـ مي شيخاني، ط 1، بيروت، دار العلم للملايين، 1987 م، ص 317.

القرآن من ذكر الأحوال الحاضرة زمن نزوله قصصا مثل ذكر وقائع المسلمين مع عدوهم ».[1]

وعرّفها عبد الكريم الخطيب بقوله : «عرض لأحداث تاريخية مضى بها الزمن فهو والأمر كذلك وثيقة تاريخية من أوثق ما بين يدي التاريخ من وثائق ممّا جاء فيه من أشخاص وأحداث وما يتصل بالأشخاص من أمكنة وأزمنة».[2]

المطلب الثاني: ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية:

هو الإمام الحافظ العلامة الناقد والمفسر البارع، تقي الدين أبو العباس أحمد بن المفتي شهاب الدين عبد الحليم ابن الإمام المجتهد شيخ الإسلام مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الحرّاني[3]، ولد بحرّان يوم الاثنين عاشر، وقيل ثاني عشر شهر ربيع الأول، سنة إحدى وستين وستمائة [4] وفي تلقيبه بابن تيمية أقوال عند أهل التراجم والسير، فقيل إنّ جدّه محمد بن الخضر حج على درب تيما فرأى هناك طفلة، فلمّا رجع وجد امرأته ولدت بنتا فقال :يا تيمية يا تيمية، فلقب بذلك، وقيل إنّ جدّه محمدا كانت تسمى تيمية، وكانت واعظة فنسب إليها[5].

نشأ ابن تيمية في كنف والده الذي قدم بعائلته من حرّان، وكان والده من أعيان العلماء وكبار الحفاظ المشتغلين بالحديث، فتولى تعليم ابنه، وأسمعه أمهات كتب السنة كالصحيحين والمسند وغيرها، كما سمع بدمشق من ابن

---

[1] انظر : التحرير والتنوير، د ط، تونس، الدار التونسية للطباعة والنشر، د ت، ج 1، ص 64.

[2] انظر : القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، د ط، بيروت: دار المعرفة: د ت، دار المعرفة، ص 39.

[3] انظر: تذكرة الحفاظ، أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي، د ط، بيروت، دار الكتب العلمية، د ت، ج 4، ص 1496 .

[4] انظر: انظر : العقود الدرية في مناقب ابن تيمية، ط 1، تحقيق أبو مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني، القاهرة، الفاروق الحديثية للطباعة والنشر، 1422 هـ ـ 2002، ص 4.

[5] انظر: مختصر طبقات علماء الحديث: محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي، ص 187

عبد الدائم وابن أبي اليسر، وابن الصيرفي، وابن أبي الخير وخلق كثير [1]، وتخرج عليه جماعة من الأعلام كابن القيم والذهبي وابن كثير والمزي وغيرهم من الفطاحل والجهابذة، وقد ترك جملة من المصنفات النافعة والتي ألبس الله عليها القبول بين العلماء والمتعلمين وانتفع بها الخاصة والعامة، توفي ـ رحمه الله ـ في العشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة في قاعة معتقلا[2].

المطلب الثالث: مكانته في التفسير وعلوم القرآن

لقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية ملما بعلوم القرآن وما تعلق بتفسير الكتاب العزيز، وبلغ في ذلك شأنا عجيبا شهد به غير واحد من معاصريه وتلاميذه، وممّن حكى هن تبحره في التفسير الإمام البرزالي حيث قال :«أمّا غزارة علومه فمنها ذكر معرفته بعلوم القرآن المجيد، واستنباطه لدقائقه ونقله لأقوال العلماء في تفسيره، واستشهاده بدلائله وما أودعه الله تعالى فيه من عجائبه وفنون حكمه وغرائب نوادره وبرهر فصاحته وظاهر ملاحته، فإنّه فيه من الغاية التي ينتهي إليها والنهاية التي يعول عليها، ولقد كان إذ قرئ في مجلسه آيات من القرآن يشرع في تفسيرها فينقضي المجلس بجملته والدرس برمته وهو في تفسير بعض آية منها، وكان مجلسه في وقت مقدر بربع النهار يفعل ذلك بديهة من غير أن يكون له قارئ معين يقرأ له شيئا معينا يبيته ليستعد لتفسيره، بل كان يقرأ ما تيسر ويأخذ هو في القول على تفسيره وكان غالبا لا يقطع إلاّ ويفهم السامعون أنّه لولا مضي الزمان المعتاد لأورد أشياء أخرى في معنى ما هو فيه من التفسير...»[3] ولفرط

---

[1] انظر : تذكرة الحفاظ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، دت، بيروت، دار الكتب العلمية، دت، ج 4، ص 1495.

[2] المصدر نفسه : ج 4، ص 1497 .

[3] انظر: الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، ط 1، تحقيق صلاح الدين المنجد، بيروت، دار الكتاب الجديد، 1396هـ ـ 1976 م، ص 23 .

ذكائه وحدة فهمه كان يملي التفسير من حفظه ويقلب صحائف التفاسير من أجل النظر في آية واحد قد يأتي عليه اليوم كله وهو واقف مع تلك الآية. وكان يهرع للخرب والأماكن المهجورة إذا أقفل عليه في فهم آية، أو استعصى عليه بيانها ويجهر لله متضرعا إليه بأن يعلمه علم آدام ويفهمه فهم سليمان، وقد جمع أقوالا في التفسير له، وجمع بعض أقوال السلف في الآثار المسندة عنهم في التفسير، وكتب بعض أصحابه جزء من ذلك، وفي شأن هذا يقول الحافظ ابن عبد الهادي ــ رحمه الله ــ«...وها أنا أذكر بعض مصنفاته ليقف عليها من أحب معرفتها، فمن ذلك ما جمعه في تفسير القرآن العظيم وما جمعه من أقوال مفسري السلف الذين يذكرون الأسانيد في كتبهم، وذلك في أكثر من ثلاثين مجلدا، وقد بيّض أصحابه بعض ذلك، وكثير منه لم يكتبوه بعده وكان رحمه الله يقول :ربّما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير، ثمّ أسأل الله الفهم وأقول يا معلم آدم وإبراهيم علمني، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها وأمرّغ وجهي في التراب وأسأل الله تعالى وأقول يا معلم إبراهيم فهمني...»[1]، وقد طلب منه بعض أصحابه أن يكتب تفسيرا كاملا مرتبا من أوّله إلى آخر على سور القرآن، فاعتذر عن ذلك بأنّ القرآن قد فسر بعضه ببعض، وهناك آيات تكلم فيه المفسرون وأشبعوا فيها الكلام؛ ولذلك فهو يحرص على الآيات التي أشكلت على كثير من العلماء ولم يحرروا فيها القول الشافي، فلذلك سعى هو ببيانها؛ وفي ذلك يقول ابن عبد الهادي ـ رحمه الله ـ : « قال الشيخ أبو عبد الله بن رشيق وكان من أخصّ أصحاب شيخنا وأكثرهم كتابة لكلمهم وحرصا على جمعه، كتب الشيخ ــ رحمه الله ــ نقول السلف مجردة عن الاستدلال على جميع القرآن وكتب في أوله قطعة كبيرة بالاستدلال ورأيت له سور وآيات

---

[1] انظر : العقود الدرية في مناقب ابن تيمية، ابن عبد الهادي، ص 24 ــ 25.

يفسرها ويقول في بعضها كتبته للتذكر، ونحو ذلك؛ ثمّ لما حبس في آخر عمره كتبت له أن يكتب على جميع القرآن تفسيرا مرتبا على السور فكتب يقول :إنّ القرآن فيه ما هو بيّن بنفسه، وفيه ما بيّنه المفسرون في غير كتاب، ولكن بعض الآيات أشكل تفسيرها على جماعة من العلماء، فربّما يطالع عليها الإنسان عدة كتب ولا يتبين له تفسيرها، وربّما كتب المصنف الواحد في آية تفسيرا ويفسر غيرها بنظيره، فقصدت تفسير تلك الآيات بالدليل لأنه أهم من غيره ...»[1]

المطلب الرابع : عرض القصة وتحليلها

الفرع الأول: عرضها

لقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ عن تفسير بعض الآيات من سورة يوسف، فمن جملة ما سئل عنه قول الله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[2] فأجاب ـ رحمه الله ـ :«المراد به ـ يعني السيد ـ في أصحّ القولين هنا سيده، وهو زوجها الذي اشتراه من مصر، الذي قال لامرأته :« أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا» قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3] فلمّا وصى به امرأته فقال لها أكرمي مثواه قال : «يوسف إنّه ربي أحسن مثواي » ولهذا قال: ﴿إنّه لا يفلح الظالمون﴾والضمير في إنّه معلوم بينهما، وهو سيدها، وأمّا قوله: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ

---

[1] انظر : العقود الدرية في مناقب ابن تيمية، ص 25

[2] سورة يوسف : الآية 23

[3] سورة يوسف : الآية 21

وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[1] فهذا خبر من الله تعالى أنّه رأى برهان ربّه، وربّه هو الله كما قال: لصاحبي السجن ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾[2] وقوله :ربي مثل قوله لصاحب الرؤيا اذكرني عند ربّك قال تعالى: ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[3] قيل أنسى يوسف ذكر ربّه لما قال :اذكرني عند ربّك، وقيل بل أنسى الشيطان الذي نجا منهما ذكر ربّه وهذا هو الصواب فإنّه مطابق لقوله : اذكرني عند ربّك قال تعالى: فأنساه الشيطان ذكر ربّه والضمير يعود إلى القريب إذا لم يكن هناك دليل على خلاف ذلك، ولأنّ يوسف لم ينسى ذكر ربّه، بل كان ذكرا لربّه، وقد دعاهما قبل الرؤية للإيمان بربّه وقال لهما: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[4] وقال لهما قبل ذلك : قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[5] فبهذا يذكر ربّه عزّ وجل، فإنّ هذا ممّا علّمه ربّه لأنّه ترك ملة قوم مشركين لا يؤمنون بالله، وإن كانوا مقرين بالصانع ولا يؤمنون بالآخرة واتبع ملة آبائه أئمة المؤمنين الذين جعلهم الله أئمة يدعون بأمره إبراهيم وإسحاق ويعقوب فذكر ربّه، ثمّ دعاهما إلى الإيمان بربّه ،ثمّ

---

[1] سورة يوسف : الآية 24

[2] سورة يوسف : الآية 37.

[3] سورة يوسف : الآية 12

[4] سورة يوسف : الآيتان 40

[5] سورة يوسف : الآيتان 37 . 38.

بعد هذا عبّر الرؤيا فقال: ﴿**يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا**﴾[1] الآية. ثمّ لما قضى تأويل الرؤيا : قال للذي ظنّ منهما اذكرني عند ربّك فكيف يكون الشيطان قد أنسى يوسف ذكر ربّه، أي الذكر المضاف إلى ربّه والمنسوب إليه، وهو أن يذكر عنده يوسف، والذين قالوا ذلك القول قالوا : كان الأولى أن يتوكل على الله، ولا يقول اذكرني عند ربّك، فلمّا نسي أن يتوكل على ربّه جوزي بلبثه في السجن بضع سنين فيقال : ليس في قوله اذكرني عند ربّك ما يناقض التوكل بل قد قال يوسف : ﴿**إن الحكم إلاّ لله**﴾ كما أنّ قول أبيه :﴿ **وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ** [2] **لم يناقض توكله، بل قال : وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾[3] وأيضا فيوسف قد شهد الله أنّه من عباده المخلصين، والمخلص لا يكون مخلصا مع توكله على غير الله، فإنّ ذلك شرك، ويوسف لم يكن مشركا لا في عبادته ولا في توكله، بل قد توكل على ربّه في فعل نفسه بقوله : ﴿**قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾[4] فكيف لا يتوكل عليه في أفعال عباده، وقوله: اذكرني عند ربّك مثل قوله لربّه اجعلني على خزائن الأرض إنّي حفيظ عليم، فلمّا سأل الولاية للمصلحة الدينية لم يكن هذا منا قضا للتوكل، ولا هو من سؤال الإمارة المنهي عنه، فكيف يكون قوله للفتى اذكرني عند ربّك منا قضا للتوكل وليس فيه إلاّ مجرد إخبار به ليعلم حاله ليتبين الحق، ويوسف كان من أثبت الناس .

ولهذا بعد أن طلب «وقال الملك ائتوني به» قال ارجع إلى ربّك فسأله ما بال النسوة اللاتي قطّعن أيديهن إنّ ربي بكيدهن عليم » فيوسف يذكر ربّه في هذه

---

[1] سورة يوسف : الآية 41

[2] سورة يوسف : الآية 67.

[3] سورة يوسف : الآية 67.

[4] سورة يوسف : الآية 33

الحال، كما ذكره في تلك ويقول : «ارجع إلى ربّك فاسأله ما بال النسوة » فلم يكن في قوله له :« اذكرني عند ربّك » ترك لواجب ، ولا فعل محرم، حتّى يعاقبه الله بلبثه في السجن بضع سنين، وكان القوم قد عزموا على حبسه إلى حين قبل هذا ظلما له، مع علمهم ببراءته من الذنب. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾[1] ولبثه في السجن كان كرامة من الله في حقه، ليتم بذلك صبره وتقواه، فإنّه بالصبر والتقوى نال ما نال، ولهذا قال: ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[2] ولو لم يصبر ويتق بل أطاعهم فيما طلبوا منه جزعا من السجن لم يحصل له هذا الصبر والتقوى،وفاته الأفضل باتفاق الناس[3].

ثمّ قال ـ رحمه الله ـ: «ربّ السجن أحبّ إلي ممّا يدعونني إليه وإلاّ تصرف عنّي كيدهنّ أصب إليهنّ وأكن من الجاهلين » عبرتان :

أحدها اختيار السجن والبلاء على الذنوب والمعاصي؛ والثانية طلب سؤال الله ودعائه أن يثبت القلب على دينه ويصرفه إلى طاعته، وإلاّ فإذا لم يثبت القلب وإلاّ صبا إلى الآمرين بالذنوب، وصار من الجاهلين، ففي هذا توكل على الله واستعانة به أن يثبت القلب على الإيمان والطاعة، وفيه صبر على المحنة والبلاء، والأذى الحاصل إذا ثبت على الإيمان والطاعة، وهذا كقول موسى عليه السلام لقومه: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[4] لما قال فرعون سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنّ فوقهم قاهرون. وكذلك قوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا

---

[1] سورة يوسف : الآية 35

[2] سورة يوسف : الآية 90

[3] انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ،جمع وترتيب عبد الرحمان بن محمد بن قاسم: دط. المغرب. لمكتب التعليمي السعودي بالمغرب، دت، مج 15، كتاب التفسير ،ج 2، ص 111 ـ 115

[4] سورة الأعراف : الآية 128

لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[1] ومنه قول يوسف عليه السلام : فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين، وهو نظير قوله: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ[2]﴾ وقوله: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[3] فلا بد من التقوى بفعل المأمور والصبر على المقدور كما فعل يوسف عليه السلام اتقى الله بالعفة عن الفاحشة وصبر على آذاهم له بالمراودة والحبس واستعان بالله ودعاه حتّى يثبته على العفة فتوكل عليه أن يصرف عنه كيدهن وصبر على الحبس وهذا كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ ﴾[4]، وكما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾[5] فإنّه لا بدّ من أذى لكل من كان في الدنيا، فإن لم يصبر على الأذى في طاعة الله، بل اختار المعصية كان له من الشر أعظم ممّا فرّ منه بكثير: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[6]، ومن احتمل الهوان والأذى في طاعة الله على الكرامة والعز في معصية الله كما فعل يوسف عليه السلام وغيره من الأنبياء والصالحين كانت له العاقبة في الدنيا والآخرة، وكان ما حصل له من الأذى قد

---

[1] سورة النحل : الآيتان 41 ـ 42.

[2] سورة آل عمران : الآية 20

[3] سورة آل عمران : الآية 186.

[4] سورة العنكبوت : الآية 10.

[5] سورة الحج : الآيتان 11 ـ 12.

[6] سورة التوبة : الآية 49

القلب نعيما وسرورا، كما أنّ ما يحصل لأرباب الذنوب من التنعم بالذنوب ينقلب حزنا وثبورا فيوسف عليه السلام خاف الله من الذنوب ولم يخف من أذى الخلق وحبسهم إذ أطاع الله، بل آثر الحبس والأذى مع الطاعة على العزّ والكرامة وقضاء الشهوات ونيل الرياسة والمال مع المعصية، فإنّه لو وافق امرأة العزيز نال الشهوة وأكرمته المرأة بالمال والرياسة... وبعد أن مضى الشيخ في ذكر بعض جزئيات القصة قال: «إنّ الله سبحانه وتعالى لم يذكر عن نبي من الأنبياء ذنبا إلا ذكر توبته منه وهذا كان الناس في عصمة الأنبياء على قولين أما أن يقولوا بالعصمة من فعلها وأما يقولوا بالعصمة من الإقرار عليها لا سيما فيما يتعلق بتبليغ الرسالة فإن الأمة متفقة على أن ذلك معصوم أن يقر فيه على خطأ فإن ذلك يناقض مقصد الرسالة ومدلول المعجزة وليس هذا موضع بسط الكلام في ذلك ولكن المقصود هنا أن الله لم يذكر في كتابه عن نبي من الأنبياء ذنبا إلا ذكر توبته منه كما ذكر في قصة آدم وموسى وداود وغيرهم من الأنبياء وبهذا يجيب من ينصر قول الجمهور يقولون بالعصمة من الإقرار على من ينفي الذنوب مطلقا فإن هؤلاء من أعظم حججهم ما اعتمده القاضي عياض وغيره حيث قالوا نحن مأمورون بالتأسي بهم في الأفعال وتجويز ذلك يقدح في التأسي فأجيبوا بأن التأسي إنما هو فيما اقروا عليه كما أن النسخ جائز فيما يبلغونه من الأمر والنهي وليس تجويز ذلك مانعا من وجوب الطاعة لأن الطاعة تجب فيما لم ينسخ فعدم النسخ يقرر الحكم وعدم الإنكار يقرر الفعل والأصل عدم كل منهما ويوسف عليه الصلاة والسلام لم يذكر الله تعالى عنه في القرآن أنه فعل مع امرأة ما يتوب منه أو يستغفر منه أصلا وقد اتفق الناس على أنه لم تقع منه الفاحشة ولكن بعض الناس يذكر أنه وقع منه بعض مقدماتها مثل ما يذكرون أنّه حلّ السراويل وقعد منها قعد الخاتن ونحو هذا وما ينقلون في ذلك ليس على النبي ولا مستند له فيه إلاّ النقل عن بعض أهل الكتاب وقد عرف كلام اليهود في الأنبياء وغضهم منهم كما قالوا في سليمان ما قالوا وفي داود ما قالوا، فلو لم يكن معنا ما

يرد نقلهم لم نصدقهم فيما لم نعلم صدقهم فيه فكيف نصدقهم فيما دلّ القرآن على خلافه، والقرآن قد أخبر عن يوسف من الاستعصام والتقوى والصبر في هذه القضية ما لم يذكر عن أحد نظيره، فلو كان يوسف قد أذنب لكان إما مصرا وإما تائبا والإصرار ممتنع فتعين أن يكون تائبا والله لم يذكر عنه توبة في هذا ولا استغفار كما ذكر عن غيره من الأنبياء فدل ذلك على أن ما فعله يوسف كان عمن الحسنات المبرورة والمساعي المشكورة كما أخبر الله عنه بقوله تعالى «إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين» وإذا كان الأمر في يوسف كذلك كان ما ذكر من قوله إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إنما يناسب حال امرأة العزيز لا يناسب حال يوسف فإضافة الذنوب إلى يوسف في هذه القضية فرية على الكتاب والرسول وفيه تحريف للكلم عن مواضعه وفيه اغتياب لنبي كريم وقول الباطل فيه بلا دليل ونسبته إلى ما نزهه الله منه وغير مستبعد أن يكون أصل هذا من اليهود أهل البهت الذين كانوا يرمون موسى بما برأه الله منه فكيف بغيره من الأنبياء وقد تلقى نقلهم من أحسن به الظن وجعل تفسير القرآن تابعا لهذا الاعتقاد».[1]

الفرع الثاني: تحليلها

إنّ أول شيء يمكن قوله في تفسير شيخ الإسلام للقصة أنّه ــ رحمه الله ــ يسعى دائما إلى تفسير ما أشكل من الآيات وما عسر فهمه من آي القرآن الكريم، ولم يحقق فيه العلماء القول الصواب أو الرأي الصحيح، أمّا الآيات الواضحة أو غير المشكلة بحيث لم تختلف فيها أقوال المفسرين فإنّه لا يعينها بالتفسير ولهذا كله لم يؤثر عنه تفسير كامل ولم يصنف كتابا في التفسير لأنّه كما قال هو عن نفسه عندما طلب منه بعض أصحابه أن يضع تفسيرا فأخبرهم بأنّ العلماء وضعوا تفاسير كثيرة والقرآن فسر منذ زمن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين من بعده إلى زمانه هو، ولكنّه ارتأى أن

---

[1] انظر: مجموع الفتاوى، مج 15، كتاب التفسير، ج 2، ص 147 ــ 148.

يسمر على تفسير آيات معينة دون أن يعرض للسورة كاملة: وأول شيء تعرض له شيخ الإسلام بالبيان هو تحرير القول في حقيقة عود الضمير من لفظة «ربي» في قوله تعالى : ﴿**إنّه ربي أحسن مثواي إنّه لا يفلح الظالمون**﴾ فذكر أنّ المراد بربّه في أصح القولين هو سيده زوج المرأة الذي اشتراه من مصر، وليس المولى جلّ وعلا وما ذكره شيخ الإسلام صحيح فإنّه في زمانهم كانوا يطلقون اسم الرب على السيد ومالك الشيء على أنّ زوجها هو ربّه أي سيّده الذي اشتراه وأحسن منزلته فلا يحل له أن يخونه في وجهه لأنّه ليس من شيم الرجال ،وهذا قول كبار التابعين كمجاهد ومحمد بن إسحاق، ورجّحه الحافظ ابن كثير في تفسيره حيث قال :«وكانوا يطلقون الرب على السيد الكبير أي أنّ بعلك ربي أحسن مثواي أي منزلي، وأحسن إلي فلا أقابله بالفاحشة في أهله»[1]، ثمّ إنّ الشيخ رحمه الله ــ تعرّض بعد ذلك لآية أخرى على نسق الأولى أراد أن يحرر فيها القول الصحيح وذلك في قوله تعالى : ﴿**فأنساه الشيطان ذكر ربّه**﴾ فقال إنّ بعض الناس ذكروا بأنّ الشيطان أنسى يوسف عليه السلام ذكر الله لما قال: لصاحبه في السجن اذكرني عند ربك، وبعضهم قال بأنّ الشيطان أنسى الذي نجا منهما ذكر ربّه أي سيّده وحكم عليه شيخ الإسلام بأنّه الرأي الصحيح، وقد رجحه بقرائن منها مطابقة الآية لبعضها في قوله «اذكرني عند ربك» مع قوله تعالى: ﴿**فأنساه الشيطان ذكر ربّه**﴾ وكذلك إعماله لقاعدة عود الضمير على أقرب مذكور، فالضمير يعود على صاحبه في السجن لا على يوسف، ثمّ أكّد ذلك بأنّ نبي الله يوسف عليه السلام يستحيل عليه نسيان ذكر الله وهو الذي دعا أصحابه في السجن إلى عبادة الله وذكرهم بحاله مع

---

[1] تفسير ابن كثير. ج4. ص 18 .

قومه وكيف تركهم وهم لا يؤمنون بالله، وهذا صحيح، ومراد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من هذا القول التأكيد على أنّ الأنبياء والرسل أعرف الناس بالله تعالى من بقية الخلق وهم أشد الخلق تحقيقا للعبودية التي خلق الله من أجلها الثقلين ووأجدهم حيث قال تعالى : ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[1] وذكر الله من أعظم أنواع المعرفة بالله، وثمرته تتجلى في زيادة محبة الخالق لدوام اللهج بأسمائه وصفاته والثناء عليه بأنواع المحامد وهذا كما قلت نوع من أنواع المعرفة بالله، فالشيخ كما قلت أراد أن يؤكد بأنّ نبي الله يوسف لم يغفل عن ذكر الله حتّى أنساه الشيطان ذكر ربّه، بل كان ذاكرا لله في كل أحواله وهو الذي دعا أصحابه في السجن إلى الإيمان بالله، فنسيان ذكر الله لا يجوز في حق نبي الله يوسف عليه السلام لأنّ الأنبياء أعرف الناس بالله والذكر من أعظم انواع المعارف كما قلت فهذا هو مراد الشيخ والله أعلم .

وأمّا قوله : ــ رحمه الله ــ والذين قالوا ذلك القول قالوا : كان الأولى ان يتوكل على الله ولا يقول : اذكرني عند ربّك فلمّا نسي أن يتوكل على ربّه جوزي بلبثه في السجن بضع سنين فيقال: ليس في قوله : اذكرني عند ربّك ما يناقض التوكل... فكيف يكون قوله للفتى اذكرني عند ربّك مناقضا للتوكل وليس فيه إلاّ مجرّد إخبار ليعلم حاله ليتبين الحق ويوسف كان من أثبت الناس» فأقول : إنّ التوكل هو أعظم أنواع العبودية لتضمنه لب التوحيد: وذلك بقطع العلائق والوسائط عمّا سوى الله تعالى، وأنبياء الله أكثر الناس توكلا على الله وهم أخصّ الخلق بهذه المنزلة من منازل العبودية، ويقول الإمام ابن القيم ــ رحمه الله ــ وأخبر تعالى عن رسله بأنّ التوكل ملجأهم ومعاذهم، وأمر به رسوله في أربع مواضعه من كتابه وقال: موسى يا

---

[1] سورة الذاريات: الآية 56

قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مؤمنين فقالوا على الله توكلنا فكيف يكون من أوهى السبل؛ وهذا شأنه والله سبحانه وتعالى أعلم»[1] ومراد شيخ الإسلام ابن تيمية من كلامه هو أنّ يوسف عليه السلام لم يفعل ما ينافي التوكل، بل على النقيض من ذلك فقد كان أشد الخلق توكلا على الله فقد توكل على الله في طلبه أن يصرف عنه كيد النساء ومراد ابن تيمية من كلامه هو القول بأنّ التوكل لا ينافي الأخذ بالأسباب، بل لا يصح إلاّ بالأسباب، وفي صدد هذا يقول ابن القيم : وأجمع القوم على أنّ التوكل لا ينافي القيام بالأسباب ، فلا يصح التوكل إلاّ مع القيام بها، وإلاّ فهو بطالة وتوكل فاسد »[2] فيوسف عليه السلام لما طلب من صاحبه في السجن أن يذكره عند الملك ليكون سببا في خلاصه وخروجه من السجن لم يكن مع ذلك مبطلا للتوكل أو تاركا له، فهو مع توكله على الله اجتهد في السبب المفضل لتحقيق مطلوبه، والأكثر من ذلك أنّ الأخذ بالأسباب لا يكون إلاّ بعد وجود التوكل ورسوخه في قلب المؤمن فكيف بحال نبي من أنبياء الله تعالى وما أحسن كلام ابن القيم لما قال : فالأسباب محل حكمة الله وأمره ودينه، والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره، فلا تقوم عبودية الأسباب إلاّ على ساق التوكل، ولا يقوم ساق التوكل إلاّ على قدم العبودية...» وقال في موضع آخر :« فالقيام بالأسباب المأمور بها محض العبودية وحق الله على عبده الذي توجهت به نحوه المطالب وترتب عليه الثواب والعقاب».[3]

ثمّ إنّ قوله تعليقا على الآية﴿**ربّ السجن أحبّ إلي ممّا يدعونني إليه وإلاّ تصرف عنّي كيدهنّ أصب إليهن وأكن من الجاهلين**﴾

---

[1] انظر: مدارج السالكين بين منازل إيّاك نعبد وإياك نستعين، ط 2، تحقيق محمد حامد الفقي، بيروت، دار الكتاب العربي، 1393 هـ - 1973 م، ج 2، ص 129.

[2] المصدر نفسه : ج 2، ص 116 .

[3] انظر مدارج السالكين، ج 2، ص 130

«فيه عبرتان: أحدها اختيار السجن والبلاء على الذنوب والمعاصي: والثانية طلب سؤال الله ودعائه أن يثبت القلب على دينه ويصرفه إلى طاعته، وإلاّ فإذا لم يثبت القلب وإلاّ صبا إلى الآسرين بالذنوب، وصار من الجاهلين، ففي هذا توكل على الله واستعانة به أن يثبت القلب على الإيمان والطاعة، وفيه صبر على المحنة والبلاء، والأذى الحاصل إذا ثبت على الإيمان والطاعة... فيوسف عليه السلام خاف الله من الذنوب ولم يخف من أذى الخلق وحبسهم إذ أطاع الله، بل آثر الحبس والأذى مع الطاعة على العزّ والكرامة وقضاء الشهوات ونيل الرياسة والمال مع المعصية، فإنّه لو وافق امرأة العزيز نال الشهوة وأكرمته المرأة بالمال والرياسة» فأقول : إنّ شيخ الإسلام رحمه الله يشير في قوله هذا إلى الدروس والعبر والقيم الأخلاقية التي حوتها قصة يوسف عليه السلام: فيشير إلى صبر يوسف على المعصية وتحمله الأذى والهوان مخافة أن يقع فيما يغضب الله تعالى، فتفسير شيخ الإسلام لهذه الآيات ركزّ فيه على فضيلة الصبر وبيان ثمرته فيمن يؤثر طاعة الله والخوف منه على اللذات والشهوات الزائلة، فيؤكد أنّ يوسف عليه السلام قد ثبت في هذا الاختبار بعد استعانته بالله وتوسله له بأن يعصمه من الوقوع في الفاحشة، ثمّ بيان كيفية اختياره للسجن بلبثه في السجن مع قدرته على التنعم والترفه لو أجاب المرأة في طلبها، لكنّه بصبره وتقواه رفعه الله وأظهره واعزّه وأكرمه بالرياسة والوزارة، فالقصة حوت خلقا طالما دعا إليه القرآن وأكدّ عليه في كتابه وامتدح المتصفين والمتمسكين به، سيّما في المواقف الصعبة التي يتبين فيها حقيقة الإيمان وقوة الصدق والمحبة، ففي صبر يوسف عليه السلام دعوة للقتداء به وبيان لضرورة إيثار الله على الهوى والشهوات الفانية التي تورث الذل والصغار. وقد أجاد شيخ الإسلام في التنويه على هذه القيمة الأخلاقية وبيان فضلها: وأمّا قوله: إنّ الله لم يذكر

عن نبي من الأنبياء ذنبا إلاّ ذكر توبته منه... وغير مستبعد أن يكون أصل هذا من اليهود الذين كانوا يرمون موسى بما برّأه الله منه فكيف بغيره من الأنبياء وقد تلقى تلقيهم من أحسن به الظن وجعل تفسير القرآن تابعا لهذا الاعتقاد» فأقول : إنّ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أراد تنزيه نبي الله يوسف عليه السلام ممّا ألصق به من أكاذيب وخرافات حول همّه الذي حكاه الله عنه في قوله: «ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه» فقد ذكروا في ذلك أقوالا وروايات تقشعر منها الأبدان وتنفر منها الأسماع، منها ما ذكره شيخ الإسلام من قولهم أنّه جلس بين شعبها الأربع وقعد منها مقعد الخاتن، وأنّ يعقوب عليه السلام تمثل له وقال له أتزني وأنت في ديوان المخلصين ،وذكروا أنّ جبريل عليه السلام ضربه بجناحه فذهبت شهوته، وغيرها من الأكاذيب التي تحطّ من مقام الأنبياء وتزري بمكانهم وتقدح في عصمتهم ،وشيخ الإسلام في هذا التنزيه اعتمد على القرآن الكريم أولا حيث ذكر شيئا رائعا وهو أنّ المولى جلّ وعلا ما حكى في القرآن الكريم عن نبي من أنبيائه وقوعه في مخالفة أو غير ذلك ممّا لا يرضيه تعالى، إلاّ وأعقبها بتوبة ذلك النبي عليه السلام كما ربّنا جلّ وعلا مثلا عن سيدنا داود فقال تعالى : ﴿**وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ**﴾[1] وكذلك لما عاتب النبي صلى الله عليه وسلم عند إعراضه عن الأعمى وأنزل سورة كاملة في شأن ذلك، وكذلك الحال في خطيئة نبي الله آدم. فشيخ الإسلام أكد أنّ الله تعالى لم يحك عن نبيه يوسف توبته من ذنب أصابه، بل على النقيض من ذلك فقد كتبه الله في ديوان المخلصين ووصفه بذلك، ثمّ أكد هذا التنزيه ثانيا بكون هذه الأقوال لا مستند لها من النقل، وإنّما هي مرويات من أهل الكتاب، ومن صنيع اليهود الذين ديدنهم

---

[1] سورة ص: الآية 25.

كما قال هو الغض من مقام الأنبياء كما فعلو من داود وسليمان عليهما السلام، وبهتم لموسى بعيب برّأه الله منه ،و قرر بعدها أنّ مروياتهم التي لا دليل لنا على صدقها أمرنا بالتوقف فيها، فكيف الحال بما يتعارض مع أصول الدين والقرآن ينكره، ثمّ إنّ شيخ الإسلام في الأخير ذكر تعجبه من طائفة من المفسرين يحسن الظن بهم وقعوا في مثل هذه المنكرات وسودوا بها صحائف كتبهم كالمقررين لها، دون دحضها وبيان زيفها، وقد صدق في، فإنّ طائفة من المفسرين على جلالتهم أوردوا هذه الأخبار على غرار ابن أبي زمنين ،و الإمام البغوي، وغيرهم من فطاحلة التفسير وأئمته، فكان الأليق بهم أن يعرضوا عن مثل هذا جملة وتفصيلا، أو يبينوا زيفها إذا أوردوها .

خاتمـــــة

وبهذا أكون قد أتيت على ما رمت بسطه في هذا المقال من بيان كيفية معالجة شيخ الإسلام ابن تيمية للقصة القرآنية من خلال قصة يوسف عليه السلام كنموذج، واتضح لي بجلاء مكانة الرجل في التفسير وطول باعه فيه، فالشيخ رحمه الله عالج القصة بطريقة رائعة ركزّ فيها على ما يجب مراعاته في تحليل القصص القرآني، فسعى لبيان العبر والدروس المستفادة من القصة، وأحسن سياقها وتحليها وتأصيلها، فالرجل تعرض لكل ما قعده العلماء متأخرا في شأن أهداف القصص القرآني ومقاصده، فذكر الجانب العقدي، الجانب التربوي والأخلاقي في القصة، وأفاض في جانب العصمة الثابتة للأنبياء ونزّه نبي الله يوسف عليه السلام ممّا قاله أهل الكتاب في جانبه الشريف، كل ذلك ببراعة في التحليل ودقة في التعبير فجزى الله الشيخ كل خير.